النشر الرقمي في المجال الأدبي
مميزاته...تداعياته و آثاره

انتهى عصر النشر الأحادي أي ذلك الورقي فحسب، وانتشى مسار آخر لإيصال الكتابات الأدبية و الإبداعات إلى الناس، فلقد أتاحت الشبكة العنكبوتية لكل منتجي أنساق الكلمات و لكل مبدعي الأجناس الأدبية منابر شتى يستطيعون من خلالها التواصل مع من يرومون إيصال جمالية و مضامين ما يبدعونه إليهم...

لكن هاته المنابر الإلكترونية ولئن قدمت خدمات و كسرت ذلك الاحتكار الذي كان للمنابر الورقية، فإنها في المقابل قد ساهمت في بروز ظواهر معينة لم تكن موجودة حين غيابها...

◆ د.صالحة رحوتي/ المغرب

و لهذا يبدو من المستساغ، بل ومن المطلوب التطرق بالدراسة لمثل هذه التداعيات، وذلك حتى يُصوَّب المسار وتُسدَّد الخطى، ثم و تُغلق الأبواب أمام كل الانحرافات التي يمكن أن تطال هذا المستجد، الذي ما هو إلا نتاج العبقرية الإنسانية والتراكم المعرفي البشري، ذلك الذي سيكون من الغبن لتلك الإنسانية أن يضيع حقها في الاستفادة منه على الوجه الأكمل و الأفضل.

فبتواتر استعمال هذه التقنية، و باستدامة توسلها، يمكن الإطلاع على كل الحيثيات والتداعيات التي ترتبت عن هذا المسلك الجديد للنشر وإشاعة الأدب والثقافة، ذلك الذي فرض نفسه على الساحة الفكرية العربية مؤخرا، وحدا بها إلى الانفتاح على واقع جديد قد تمر فترات زمنية - وحتى تلك المطولة منها - قبل أن يُتوصل إلى حسن استيعاب أبعاده فيها، و من ثم إلى إتقان التعامل مع خصائصه ومقوماته من طرف المتفاعلين داخله.

وفي إطار محاولة للغوص في حنايا هذا الموضوع ومن أجل استجلاء غوامضه، و بهدف تقصي الحقائق المرتبطة به، يبدو من الإيجابي استقصاء أغلب التداعيات

السلبية التي نتجت عن هذا التوجه الرقمي للنشر، وذلك من بعد استقراء معظم خاصياته ومقوماته و كذا إيجابياته.

1- الخاصيات:

كان النشر الورقي - و لمدة طويلة - يُخضع الكاتب لضوابط محددة سلفاً و لمعايير منتقاة بعناية من طرف صاحب الجريدة أو الدورية...و ما كان لذلك الكاتب إلا أن ينحني أمام تلك الإكراهات لكي يحظى بوصول كلماته إلى الناس...أو أن يتحمل التبعات المادية و يتجه إلى دور النشر إن قبلت هي أيضا أن تجازف بتبني ما انثال من أعماق ذهنه و فكره...

لكن و قد ابتكر هذا المسار الرقمي فقد تم تخطي الحواجز وأصبح النشر يتميز:

- باللحظية - في بعض المواقع -، إذ يكفي أن يقرر الكاتب موعد إرسال ما يكتب حتى يكون ماثلا أمام القراء.

- و بالمباشراتية، إذ لا يُحتاج إلى موافقة مسبقة من صاحب الموقع في بعض المواقع أيضا، و يُكتفى بأن يكون الكاتب عضوا مسجلا في سجل الموقع و لو حتى باسم مستعار...

- و أيضا بكونه متاح للجميع، و ذلك دونما اعتبار لشهرة أو رسوخ في عالم الكتابة والإبداع، إذ يمكن حتى للمبتدئ أن يوصل ما خطت أسطره - أو بالأحرى رقنت أحرفه على ملمس الحاسوب - إلى الناس.

2- الإيجابيات:

ثم و لا شك من أن انبثاق هذه الكيفية للنشر من رحم التقنية متعها بخاصية النفع وبالإيجابية، فما من داع او دافع للإنسان إلى اختراع شيء ما إلا للاحتياج إليه او الافتقار إلى تميز ورقي وجودة خدماته.

ولذا يمكن الجزم بأن هنالك إيجابيات كثيرة كامنة و بينة، و تتأتى حتما من وراء نهج هذا السبيل المبتدع المبتكر، و منها أنه:

- يُمَكِّن من الانتشار السريع عن طريق كثرة القراء و المطلعين.

- يساعد الأديب على تجاوز مشكلة انعدام القدرة الشرائية، تلك القدرة الممكنة من التعامل الحر مع المنشورات الورقية الجرائد و المجلات والكتب، و من الإطلاع اللامحدود عليها.

- يفتح باب التكوين الثقافي المستمر، و ذلك عن طريق فعل القراءة الموازي لعملية النشر لكثير من الكتابات، تلك التي تغني الرصيد المعرفي، وتُفعِّل التراكم الثقافي الواعي لدى الكاتب.

- يعطي فرصة ولوج الكثير من الفضاءات، تلك التي قد تكون من المستحيل مقاربتها بفعل البعد الجغرافي، أو بسبب الاختلاف الإيديولوجي، أو حتى بسبب حداثة السن و انعدام التجربة الإبداعية الطويلة.

3- التداعيات و الآثار السلبية:

ويبقى أنه كما لهذه الوسيلة محاسن شتى، وتقدم خدمات شتى متميزة تقرب الثقافة الأدبية والنتاجات الإبداعية للجمهور من القراء، فهي في نفس الوقت لها سلبيات ويؤدي سوء استعمالها إلى ظهور ندوب مُشوِّهة، تؤثر بعمق على وجه المجال الأدبي ، و من ذلك:

أ - فسح المجال لنشر الرديء والمتدني من الأعمال.

ب - عدم مواكبة النقد الجاد لتلك الكتابات الأدبية.

ج - ترهل الساحة الأدبية.

د - حرمان القراء من النصوص الأدبية المتألقة الراقية.

هـ - ظهور تيارات أدبية متنافرة.

ولمناقشة اعلاه نبدأ بـ

أ - فسح المجال لنشر الرديء والمتدني من الأعمال:

و ذلك لغة و أسلوباً، وحتى تحقيقاً للمعايير المتطلب تواجدها حين إنجاز أي جنس من الأجناس الأدبية، و كذا أي نوع من أنساق

الكلمات، و لربما يرجع ذلك إلى:

– كثرة المواقع التي ترى نفسها (أدبية) وكذا تَناسُل أعدادها.

– تكالب أصحاب المواقع على نشر كل الكتابات مهما كانت متدنية في درجاتها الإبداعية، و ذلك من أجل سد الحاجة إلى ما تُملأ به الصفحات.

– محاولة اكتساب الشهرة و إثارة الانتباه من طرف بعض المواقع الأدبية، و ذلك عن طريق قبول نشر الكتابات المثيرة للجدل الفكري السياسي أو الإيديولوجي، أو تلك المتضمنة للجرعات ـ الزائدة عن اللزوم حتى ـ من الجرأة على الدين أو على الأخلاق، و ذلك مهما كانت منحطة أو غير متوفرة على معايير الإبداع الأدبي.

– محاباة المعارف و الأصدقاء الذين يمارسون الكتابة من طرف القائمين على بعض المواقع، و كذا نشر كل ما يخطر لهم على بال ويكتبونه، و ذلك دون احتساب مقدار جودة ما يكتبون.

ب ـ عدم مواكبة النقد الجاد لتلك الكتابات الأدبية:

فلقد دأب النقد منذ ظهور الإبداع الأدبي على السير بجانبه من أجل تصويب مساره وتسديد خطاه، إذ لولاه لما أمكن فرز الزائف من الصحيح، و لما تُوُصِّلَ إلى تحديد مواصفات معينة يجب توفر الحد الأدنى منها حتى يُتحدث عن وجود بذار الإبداع.

و لما كان النشر الورقي محدود الكمية مقارنة مع هذا الرقمي، فإن مسيرة نقدية مسايرة له كانت دائما لها وجود فاعل، هذا زيادة على أن ذلك الصنف من النشر كان أصلا يُخضع النتاجات الأدبية لغربال الناشرين، الذين ما كانوا يسمحون لدورياتهم و لجرائدهم بأن تستقبل ما يُمكن أن يُشين بسمعتهم و بمكانتهم الأدبية والمعرفية.

وقد انتفى هذا الغربال الفارز في إطار النشر الرقمي، فإن الحبل قد أُلقي على الغارب، وأصبح كل ما يخرج من العقول قابلا للنشر وقابلا للتصنيف في إطار الإبداع الأدبي.

ولعل للتجريب دور في تكريس هذا الوضع، إذ يختبئ وراءه كل منتج للكتابة من أجل تمرير ما يكتب كإبداع منه خاص به، ثم و تراه المردد بأنه ليس محتاج بالضرورة إلى موافقة الناس وحتى النقاد...

و قد ساعدت في تغييب النقد الأدبي المُوجِّه المُصَوِّب عوامل عدة منها:

– كثرة المواد المنشورة على الشبكة العنكبوتية:

و ذلك لكثرة المواقع المستقبلة للنتاجات الأدبية.

– عدم اقتناع الكثير من نقاد الأدب المرموقين الجادين بالنشر الرقمي أصلا:

إذ يعتبرون ما نشر و ينشر عن طريقه من سقط الكتابة، و من ثم لا يستحق أن يُحتفى به وتتابع مسيرته...

– عدم قدرة البعض من النقاد على النفاذ إلى العالم الرقمي:

و ذلك لضعف أو لغياب المعرفة بالمعلومات واستعمال الحواسيب، ثم إن الجهل باللغات الأجنبية من طرف الكثير من النقاد هو السبب شبه الغالب لتلك الأمية المعلوماتية، وخاصة لدى الجيل المتقدم من أولائك النقاد.

– انحسار الرغبة الحقيقية في ممارسة النقد الرصين:

ذلك المبني على الأسس العلمية الأكاديمية، إذ بعد الإطلاع على الآداب الأجنبية سواء مباشرة في لغاتها الأصلية أو عن طريق الترجمات، ظهرت قوالب أخرى شتتت ذهن النقاد غير الراسخين، فما عادوا قادرين على الدفاع عن طروحاتهم النقدية التي هوجمت و انتقدت هي الأخرى، فنودي بالذائقة من القارئ وحده

باعتباره معياراً يُتكأ عليه من أجل تقييم العمل الأدبي.

– تقليص المسافة بين الناقد و الأديب المنتج:

وكذا تواجدهما معا في فضاء افتراضي واحد، مع ما أحدث ذلك من إمكانية للتفاعل المباشر بينهما كتبادل الآراء و الردود والتعليقات، وكل هذا قزم فرص انحسار الحياد والنزاهة بين ثنايا النقد المفترض أن يكون، وفتح الباب أمام كثرة المجاملات و تبادل كيل الشكر والمدائح.

– تواجد عدد من الكتاب في الحيز الواحد:

مع التمكن من إطلاع كل واحد منهما على نتاج الأخر، ثم بروز الرغبة الجامحة في نيل الإعجاب الصادر من ذلك الآخر، فيبدأ بمغازلته وبالرفع من قيمة ما كتبه طمعا في الحصول على المقابل (إشادة بما أنتجه هو و نَسَّق كلماتِه)... كل هذا حتى دون اطلاع كل منهما على مضمون وعمق ذالك المنتج من طرف كليهما في بعض الأحيان!

لكنها المجاملات الثقيلة حد الغثيان في الكثير من المواقع حتى الجادة منها، والسعي وراءها اعتقادا بأن تلك الانطباعات من طرف المعلقين يكسب شهرة أو مرتبة أو ترقية في سلم عوالم الأدب، مع أن المعلقين في الكثير من الأحيان ليسوا إلا من الهواة و لا شأن لهم بالمعرفة الواعية في مجال الأدب، ولا رصيد علمي لهم يمكنهم من الحكم على الإبداعات التي نشرت، أو قاموا هم بنشرها على صفحات المواقع الإلكترونية.

و لعل من أبرز مظاهر ذلك التكالب تبادل المجاملات وانحشارها في نسيج فكر جل - إن لم نقل كل - الأدباء الممارسين للنشر الرقمي:

– انتشار تلكم "الحوارات" المبثوثة هنا و هنالك في المواقع الأدبية:

والتي يقومون بها هم "الأدباء"الواحد تلو الآخر مع بعضهم البعض، و ذلك بهدف الحديث عن أنفسهم و كذا عن "إنجازاتهم الأدبية العظيمة" و التي ما حكم بعظمتها و بتفردها في الكثير من الأحيان أحد سواهم.

– تعدد تلكم "القراءات" المسماة "نقدية":

تلك الموشاة بالمدائح و المطرزة بتفخيم المحاسن، والمغيب منها تماماً ذكر المثالب و النقائص للإبداعات المنشورة، و يقوم بها:

– من تخصصو في هذا الباب، ومن هم مدفوعو الأجر في بعض الأحيان!!!

– أو أولائك الأدباء نفسهم عبر الترويج المباشر لإبداعات بعضهم البعض، مع الحرص على إلصاق و تكرار الألقاب الرنانة للكاتب و للمكتوب دون حدود و لا نهايات.

– التعامل المنحاز غير المحايد مع الإنتاجات المُبدَعَة من طرف الجنس الآخر المغاير:

و هذه الظاهرة كانت المؤثرة نسبيا في ميدان النقد الأدبي زمن النشر الورقي، لكنها الآن الأكثر تأثيرا و الأعمق وسما بفعل التعارف و الاحتكاك المباشرين بين الجنسين في العوالم الرقمية.

ثم و يبدو هذا الأمر أكثر وضوحا حين يتعلق بتعامل الرجال مع نصوص أدبية للنساء؛إذ تظهر التعليقات و التفاعلات و كأنها موجهة لشخص الأديبة لا إلى نصوصها...

و لعل للأديبات دور في تكريس هذا التوجه في مجال النشر الأدبي الرقمي، إذ هي تمتلئ بالصور التي تنضح بالنظرات الحالمة المستكينة، و تتضوع بالعري، و تُبدى كل ما يُمكِّن من استجلاب اهتمام القراء الذكور لهن، و بالتالي تبعا لذلك بنصوصهن التي تصبح في الصف الأخير من المهتم به بعد أجسادهن.

إذ الاعتقاد راسخ لديهن بأن ذلك القارئ المعلق أو الناقد الأدبي سيتساهل حتما حين يبدي رأيه بخصوص نص أنثوي، و بالتالي سيضفي هالات من إعجابه المضمخ بالإطراء "رفقاً بالقوارير"...

و هذا ما ينتج تعاليق و ردودا تنثال منها عبارات الغزل المبطن و حتى الصريح، و هذا مما يؤدي طبعا إلى الإساءة إلى صورة المرأة الأديبة

التي تفقد مصداقيتها و تتردى مكانتها في عالم الأدب، ذلك الذي ما كان عليها أن تروم إلا أن تكون لها قدم راسخة فيه كما الرجل دون إقحام بعد الجنس المنتمى إليه.

إذ أن النقد الأدبي عمل أخلاقي بالدرجة الأولى، ويجب أن يهدف أولا و أخيرا إلى السلوك بالمبدع إلى درجات أعلى من الإبداع، و ذلك دون الغوص في تفاصيل ماهيته وهويته و جنسه.

و هكذا فإن التنقيب عن جوانب و حيثيات في شخصية المبدع قبل التصدي للبحث عن خصائص و مقومات نصه المقصود بالنقد وبالتمحيص أو حتى بالتعليق انزلاق مقيت، و من ثَمَّ هو يخدش مصداقية الناقد، و حتى ينتقص من درجات علميته و ثقافته، إذ يؤدي به إلى ولوج وهدة التمييع، ويدخله في متاهة المجاملات الرخيصة غير البريئة في غالب الأحيان.

إذ الناقد الأدبي الجاد المؤمن برفعة رسالته لا يبتغي إلا تشريح النص من أجل إبراز خبئه الجيد و كذلك ذلك المجانب للصواب، سواء تعلق الأمر بالقالب الأدبي أو بالمضمون، و سواء أ كان من مبدع أو من مبدعة.

إذ ليس من فرق في كيفية مقاربة النصوص والأمر لا يتعلقُ بجنس الكاتب، فما من موضوع مباح للأديب تناوله دون الأديبة، و إلا فهو التكريس لتداعيات الموروث التقاليدي المقيت، فما لا يجب طرحه لأن الأخلاق قد تمجه وترفضه، فالأمر فيه سيان بالنسبة للجنسين، و ما هو رديء إنتاجه و مستهجن إبداعه فهو كذلك بالنسبة إليهما معا.

ويبدو أن احتكار الرجال لفضاءات الإبداع الأدبي لمدة طويلة - الإقصاء كان من نصيب المرأة - جعلهم غالب القضاة والمحتكم إليهم عند تقييم الكتابات في العالم الرقمي، وهم في الغالب لم يتوصلوا لحد الآن للتجرد من الأفكار المسبقة عن المرأة والسائدة في المجتمعات التقاليدية، فهي تبقى بالنسبة إليهم تلك الأنثى...و الغواني يغرهن الثناء...

إذ ذلك التمييز لا زال موجود وكائن، ويتعلق بتغلغل النظرة الغريزية للرجل إلى المرأة رغم معايشته لولوجها في شتى الميادين و خاصة الفكرية والأدبية منها، و بالرغم من أن موجات "الحداثة" قد تغلغلت في نفوس الجل منهم كما يدعون.

و هذا ما لا يمكن أن يستساغ أدبيا ولا حتى أخلاقيا، لأنه يُشعر بعدم الإيمان بالندية للمرأة مع الرجل في عالم الأدب، وبعدم القدرة منها على الإبداع الرصين المستحق لذلك لنقد الرصين، المؤدي بها في نهاية الأمر إلى مراجعة النفس باستمرار من أجل تحسين وتجويد الإنتاج...

و بناء على هذا يجب على الأديبة الواعية أن تنشد - حينما تنشر نصا إبداعيا في احد المواقع الأدبية الرصينة - الحصول على انطباعات وانتقادات محايدة من الأدباء و المثقفين،و ذلك من أجل الاستفادة من توجيهاتهم و آرائهم لتتقدم قدما إلى الأمام، لا لتستجدي عبارات الإطراء والمجاملة رغم رداءة النص و تردي نوعيته...

فالتوسع في إنفاق المدائح على المرأة في مجال النقد أمر على المرأة المثقفة أن تحاربه وتستهجنه، لأن وجوده و تكريسه يعني أنها غير قادرة على الصمود كما الرجل أمام النقد البناء الجاد الموصل إلى اكتشاف الهنات، و من ثم العمل على التصدي لها بتجاوزها وإصلاحها.

فكم من "المبدعات" أُحطن بهالات من الإعجاب و أغدقت عليهن المدائح في واقع الحال... فكان أن استسلمن لوهم التميز، و تهن في بحور تلكم العلاقات!!! و انصرم ربيع حياتهن بين أيدي المعجبين والزملاء...و اكتشفن في آخر الأمر وبعد ضياع فرص الاستقرار الاجتماعي أن الإعجاب لم يكن إلا بالجسد وبالشباب لا غير...فما من رصيد إبداعي يعتد به، و ما من إبداع كان أصلا، وإنما هو كلام معسول أتقن "النقاد "تنسيقه من أجل حيازة الاستمتاع ب"القرب" وبـ"المقاربة"...!!!

فالمطلوب من الأديبة الواعية أن لا تطالب و أن لا تقبل إلا بما تستحق، وعوض أن تستمرئ ما ينثال عليها من هبات القول و تبرعات الاستحسان، عليها أن تسعى إلى نبذ ذلك السلوك و إلى الرد عليه بتطوير نفسها، وبناء كيانها الفكري من أجل حيازة ما لها عن جدارة واستحقاق.

فحين الإطلاع على بعض المواقع التي تقدم نفسها بصفة ال"أدبية" و حتى الجادة نجد أقلاما نسائية تؤثث فضاءات تلك المواقع، و لا تعمل إلا للترويج للعنصر الرجالي، الذي يستغل وجودها للتفاعل معها حول التافه من المحاور و الموضوعات و حتى البذيء الشائن منها في بعض الأحيان، و ذلك من أجل الهروب من واقع مأزوم متشنج عمل على خلقه هو، ثم وهو يكرسه داخل أسرته عن طريق العنف و اللامبالاة و الإهمال.

ج ـ ترهل الساحة الأدبية:

و ذلك عن طريق إغراق المجال الأدبي بالنصوص المتراكمة، طبعا دون حضور معايير الجودة...فقط هو تصاعد لوتيرة الإبداع الذي فُتح بابه أمام الكل، حتى أمام من لا يتقن اللغة التقريرية العادية ولا يقدر النسج على النول الأدبي الرفيع. فتلكم المجاملات المبالغ فيها و غير المحسوبة النتائج تأتي من وراء اعتقاد البعض انهم أصبحوا أدباء حقيقيين، و بالتالي تجدهم لا يفتأون يغرقون المواقع بكل ما تتفتق عنه قرائحهم من نصوص لا تنفع إلا في التدليل على سذاجة منتجيها و بساطة تفكيرهم.

د ـ حرمان القراء من النصوص الأدبية المتألقة الراقية:

تلك التي كان يمكن إبرازها بما تستحقه من اهتمام ودراسة لولا كونها مغمورة في بحر الغثاء الرقمي، ذلك الذي لم يعد النقاد يرون أنفسهم معنيين بولوج خضمه من أجل العمل على تعيين الفاسد و نبذ المتهالك المتواجد فيه.

هـ ـ ظهور تيارات أدبية متنافرة:

و قد ساهم في ذلك تعدد المواقع، و حتى ظهور مواقع لا تحتضن و لا تنشر إلا توجه إيديولوجي معين...و ذلك لعدم الرغبة في قبول الرأي الآخر، و لعدم استيعاب بُعدِ الحق في الاختلاف، ذلك البعد التي يُمكِّن من التواجد في فضاء افتراضي واحد، ثم و يكون عونا على إقامة حوار حضاري جاد و بناء يُفَعِّل أواصر الأخوة في الإنسانية حتى إن انتفت وشائج أخرى.

و أخيرا...

هذه من باب التمثيل لا الحصر بعض الخاصيات و المقومات الإيجابية و التداعيات السلبية الناتجة عن استعمال النشر الرقمي في المجال الأدبي، تلك الطريقة التي لا يمكن الاستغناء عنها لارتباطها بالتقدم الإنساني، و لإتاحتها الحصول على العديد من المكاسب... وتلك التي يجب إعادة النظر في سبل توسلها حتى يثمر لك التوسل ازدهارا في عالم الأدب، ذلك المحتفي بجمالية الرؤى المصورة بجميل الأنساق و الكلمات...

❖ ولأنَّ حياتك لن تكفي لتجوب العالم بأسره، لم يبقَ إلا أن تقرأ كل الكتب.

أمبرتو إيكو- باودولينو- ترجمة نجلا محمود وبسَّام حجار- 2003- المركز الثقافي العربي- ص84.

❖ مهلا يا أخوان صاح باودولينو قائلاً عليكم بالشكر، لأنَّكم حظيتم بملكٍ من دون مقابل فقط لأنَّكم تظاهرتم بأنكم حمير.

أمبرتو إيكو- باودولينو- ترجمة نجلا محمود وبسَّام حجار- 2003- المركز الثقافي العربي- ص281.